

السنخية والتوظيف الباطني للاسماعيلية

يحيى محمد

تعد شخصية جابر بن حيان الكوفي (المتوفى سنة 190 هـ) أقدم شخصية قامت بتوظيف الباطن طبقاً لدينامو التفكير الوجودي. فأهم ما عُرف به هذا الفيلسوف الباطني هو استعانته بالحروف والأسماء والأعداد في الكشف عن المماثلات الوجودية ومعرفة حقائق الأشياء وطبائعها^[1]، معتمداً في ذلك على قانون الشبه بين الوجودات. فهو إستناداً إلى قاعدة (الإمكان الأشرف) اعتبر آثار المؤثر شبيهة به؛ لأنها أمثال خواصه على الوجه الأحسن لاختلاف الفاعل والقابل في الفضيلة والنقص^[2]. وهو على شاكلة انكساغورس والافلوطينية يقول: «ليس في العالم شيء إلا وهو فيه جميع الأشياء»^[3]. «إن في الأشياء كلها وجوداً للأشياء كلها». فربط ذلك بالكيمياء، بإعتباره عالماً متضللاً ومبدعاً فيها، وأضاف قائلاً: «لكن على وجوه من الاستخراج، فإن النار في الحجر كامنة ولا تظهر، وهي له بالقوة، فإذا زُند وأورى ظهرت»^[4]. وهذا الربط لا يختلف عما وجدناه لدى افلوطين من نصوص، كما لا يختلف عن نص هرمسي مؤسس هو الآخر على قانون الشبه كالتالي: «ما من طبيعة إلا وهي مجذوبة بطبيعة أخرى، وما من طبيعة إلا وهي مقهورة لطبيعة أخرى، وما من طبيعة إلا وهي تهيمن على طبيعة أخرى»^[5].

تلك هي فكرة الكيمياء القديمة في تحويل الأشياء بعضها إلى البعض الآخر، وهي مبرر البحث عن طرق تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والجواهر الثمينة، إستناداً إلى قانون (الأصل والشبه).

كما وإستناداً إلى هذا القانون نجد لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي الإعلان عن إعتبار الإنسان نسخة مختصرة ونموذجاً مضاهياً للعالم، حيث يكون الإنسان عالماً صغيراً، والعالم إنساناً كبيراً، فكلاهما له نفس وروح^[6].

أما رجال الإسماعيلية التابعون فهم لا يختلفون عن الأصول العلمية التي رسمها لهم جابر بن حيان ومن على شاكلته. فهم مصرحون أيضاً بعلاقة الشبه والتماثل بين عوالم الوجود ومراتبه، بل ويضيفون إلى ذلك علاقة التماثل بين تلك العوالم والإعتبارات الذهنية والأمور الدينية.

ولأول مرة نجد إخوان الصفا - وهم من الإسماعيلية - يعولون على مدار «الشبه» كأصل يمنع الناس من الاختلاف في التوصل إلى الحقيقة كما هي. فاعتبروا أن هناك أصلاً واحداً وقياساً واحداً لحل الاختلافات جميعاً والتوصل إلى الحقيقة، ألا وهو «صورة الإنسان»، أي تشبيه العالم بالإنسان، فيقاس كل شيء في العالم على ما موجود في الإنسان ذاته، فهو عندهم عبارة عن نسخة مختصرة ونموذجاً مضاهياً للعالم، لذا أطلقوا عليه (العالم الصغير) في قبال العالم الكبير المشار إليه بلفظة (الإنسان الكبير)، حيث كلاهما له نفس وروح مطيعة لربها^[7].

وهذا التأسيس للنظر وتوحيد الرأي المستند إلى (صورة الإنسان) يرتد في النتيجة إلى قانون الشبه والتماثل بين الوجودات. وهو القانون الذي يخلق به الإسماعيلية طويلاً وعرضاً ليحيط بكافة مراتب الوجود، مع الوقوع في التردد حول مبدأ الوجود الأول. فأغلبهم يأتم بطاليس ومن على شاكلته دون افلوطين، كما هو الحال مع رجال الإسماعيلية القدماء الذين يعتبرون المبدأ الأول لا يقبل الوصف إطلاقاً، ويجعلونه أساس ظهور سلسلة عوالم الوجود، حيث أبدع بالأمير العقل الأول الموصوف بالتام بالفعل، ثم بتوسطه أبدع النفس التالي الذي هو غير تام، وهكذا يتسلسل الوجود^[8].

كذلك الأمر تقريباً عند بعض الإسماعيليين كالكرماني، إذ يقرر بأن المبدأ الأول هو هوية لا يقبل الوصف ولا يعبر عنه إلا بالسلب، ثم يأتي بعده مرتبة العقل الأول الذي يسطع منه نور نتيجة اغتباطه بذاته، فيخرج عنه المنبعث الأول الذي هو العقل الثاني المسمى بالقلم. وإلى العقل الأول يعود وجود كل ما سواه، فهو الفاعل الذي لا يحتاج في فعله إلى غير ذاته، والمحرك لكل ما هو متحرك، وهو في حدود ذاته عبارة عن عقل وعقل ومعقول بلا فرق^[9].

لكن الأمر مع إخوان الصفا يبدو مغايراً، إذ يأتمون بدرجة ما بإفلوطين دون طاليس وأتباعه، فهم - على ما يبدو - يطبقون قانون الشبه حتى على مبدأ الوجود الأول، فيجعلون من العقل الذي هو أول فعل المبدأ الأول عبارة عن مثاله، بإعتباره معلولاً له^[10]. ثم من هذا العقل الذي فيه صور جميع الأشياء تستمر سلسلة الإبداع بالإفاضة من جوهر إلى آخر^[11].

ولعل أهم ما لدى الإسماعيلية هو توظيفها لقانون الشبه وتطبيقه على ما تعتقده من تماثلات بين نواحي الوجود والشريعة والعدد. وقد اقتبس الإسماعيليون فكرة العدد من مدرسة فيثاغورس ووظفوها في مختلف نواحي الوجود والشريعة. وأول الآثار التي أظهرت هذا الإهتمام هي آثار جابر بن حيان، إذ كان مهتماً بكل من العدد والحروف والأسماء. وقد تغلغل هذا الإتجاه وتعمق لدى أتباع ابن حيان، حتى وصل إلى إخوان الصفا، فكانت رحي مماثلاتهم تدور في أغلبها على كل من الأعداد (4)، 7، (12) وأصل العدد عندهم من الواحد إلى الأربعة، وسائر الأعداد الأخرى تنشأ وتتركب منها.

فمن مماثلاتهم الخاصة بالعدد (4) اعتبروا مراتب فوق الطبيعة أربع، أولها المبدأ الأول ثم دونه العقل الكلي الفعال، ثم دون ذلك النفس الكلية، وأخيراً الهيولى الأولى. وكذا اعتبروا عناصر الطبيعة أربعة أيضاً، النار والهواء والماء والتراب^[12]، وبرأيهم أنها تكونت من أصول أربعة، هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. كما ويقابل هذه العناصر فصول السنة الأربعة، وأيضاً الأعضاء الرئيسة الأربعة للإنسان، وهي الدماغ والقلب والكبد والانشيتان، كذلك الأخلط الأربعة (الصفراء والدم والبلغم والسوداء)^[13]. يضاف إلى ما يماثل ذلك من قوانين دينية أربعة، هي: التوحيد، والعلم بمراتب الحدود، والمواعظ المنبهة على ذلك والمشوقة إليه، والعمل بالأوامر والنواهي الشرعية^[14].

أما مماثلاتهم الخاصة بالعدد (7) فكثيرة، منها أن الموجودات التي تتألف منها الطبيعة سبعة، هي: النار والهواء والماء والتراب مضافاً إليها المتولدات الثلاث: المعدن والنبات والحيوان. كما أن جواهر جسم الإنسان سبعة، هي: المخ والعظم والعصب والعروق واللحم والجلد والشعر، ويقابلها سبعة أعضاء مستورة في الجسم، هي: الدماغ والقلب والكبد والطحال والرئة والمرارة والكلية. كذلك هناك سبع نفوس جزئية للنفس الكلية، هي: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغازية والنامية والمصورة. كما هناك سبع قوى روحانية، هي: الباصرة والشامة والذائقة والسامعة واللامسة والناطقة والعاقلة. إضافة إلى وجود سبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة كواكب نيرات^[15]، وسبعة بحار في الأرض^[16]، وسبعة أيام في الأسبوع. وأن عدد الأنبياء النطقاء المشرعين سبعة، وعدد الأسس سبعة، كما أن عدد الأئمة سبعة أيضاً.. وهكذا^[17].

تبقى مماثلاتهم الخاصة بالعدد (12)، فقد ذكروا بأن المدينة الروحانية الفاضلة لا يقوم أمرها إلا بأثني عشر داعياً يتولون إدارتها ويتوزعون على الأقاليم الاثني عشر الموجودة في الأرض، وهي اقليم العرب والترك والبربر والزنج والحبشة والخزر والصين وفارس والروم والهند والسند والصقالبة، والتي يقابلها اثنا عشر برجاً في السماء، هي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. كما أن في جسم الإنسان اثني عشر منفذاً، هي: العينان والأذنان والمنخران والثديان والسبيلان والفم والصرة. كما وأن السنة الكونية تنقسم إلى اثني عشر شهراً، وكذا ساعات النهار وساعات الليل. والدعوة للإسماعيلية مؤلفة من اثني عشر شخصاً، وهم بحسب الترتيب: الناطق والأساس والامام والحجة والباب والداعي والمتم واللاحق والجناح والمأذون والمكاسر والمستجيب. كما وأن عدد أصناف المعادن الكريمة اثنا عشر، هي: الطفل والمغرة والكدان والجص والصوان والرخام والأسرب والكبريت والملح والكحل والشب والحديد والنحاس والرصاص والقصدير والفضة والذهب والعقيق والياقوت... وهكذا^[18].

وقد فسّر الإسماعيليون الآية: ((عليها تسعة عشر))^[19]، عن طريق جمع العدد (7) مع العدد^[20] (12).

ولو أردنا اكمال المسير مع الإسماعيلية وهي تطبق علاقات التماثل بين الأعداد والوجود والخطاب الديني، لأعيانا الأمر لتضخم ما لديها من الممارسات المناطة بتشكيل العلاقة بين المماثلات والمماثلة بين العلاقات، إلى الحد الذي تفضي بقانون الشبه إلى نوع من «التسيب»، إذ ما تقيمه لا يتخذ إتجاهاً محدداً، بل يجري لأدنى مناسبة، وهو متحرر عن أي اعتبار عام، رغم أنه كثيراً ما يستهدف أغراضها الدينية الأيديولوجية، بدعوى الكشف عن الباطن. وعليه صار عدوى لم تبرأ منه الطريقة الصوفية وهي تحاول وضع يدها على نصوص الشريعة. وإذا كان للإسماعيلية دواع وأغراض مذهبية تستهدفها من تشكيل علاقات التماثل وتماثل العلاقات، فإن هذه الدواعي والأغراض لا تعني - في الغالب - شيئاً لدى الطريقة الصوفية، رغم أنها لم تنج من عدوى ممارسة هذه «الألاعيب» بلا هدف ولا غرض، كالأزائفة الدودية التي فقدت وظيفتها

ودورها في الحياة.

أما مع الفلاسفة المحترفين فقلّما نجد مثل هذه الألاعيب، فهم محافظون في الغالب على قانون الشبه بانتظام دون تسيّب، بالرغم مما يعتريهم من تردد حول مبدأ الوجود الأول، بل والوجود الأخير (الهيولي)، مثلما حصل مع أسلافهم من فلاسفة اليونان.

[1] زكي نجيب محمود: جابر بن حيان، مكتبة مصر، ص 119-139

[2] مختار رسائل جابر بن حيان، ص 544

[3] عن: عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 228

[4] مختار رسائل جابر بن حيان، ص 6

[5] عن: تكوين العقل العربي، ص 182 و 195

[6] جابر بن حيان، ص 145-146 أيضاً: مختار رسائل جابر بن حيان، كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل، ص 50-51

[7] الرسالة الرابعة والثلاثون من رسائل إخوان الصفا، ج 3، ص 212-214، وج 4، ص 9 وما بعدها.

[8] الملل والنحل، ص 82

[9] الكرمانى: راحة العقل، تحقيق وتقديم محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ص. 109 كذلك رسالة الكرمانى: اسبوع دور الستر، ضمن أربع رسائل إسماعيلية، مقدمة وتحقيق عارف تامر، دار الكشاف، بيروت، الطبعة الأولى، 1953م، ص 62 وما بعدها.

[10] رسائل إخوان الصفا، ج 4، ص 206-207.

[11] المصدر السابق، ج 3، ص 187.

[12] يوحنا قمير: إخوان الصفاء، ضمن سلسلة (فلاسفة العرب 7)، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية ببيروت، 1986م، ص 71-72.

[13] جابر بن حيان، ص 145-146.

[14] علي بن محمد الوليد: رسالة جلاء العقول، ضمن منتخبات إسماعيلية، تحقيق عادل العقرا، مطبعة الجامعة السورية، 1378هـ - 1958، ص 119-120.

[15] وهذه الكواكب هي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل.

[16] وهذه البحار هي: الروم والصقالبة وجرجان وقلزم وفارس والسند والصين.

[17] الأنبياء النطقاء هم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم. أما الأسس فهم: شيث وسام واسماعيل وهرون وشمعون وعلي والقائم الذي امتنعوا عن ذكر اسمه حرصاً على سرية المعتقدات. والأئمة السبعة هم: علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق واسماعيل بن جعفر.

[18] لاحظ ما يخص مشكلات العدد (7) كلاً من المصادر التالية: مقدمة مؤلف أربع رسائل إسماعيلية، ص 10-12 كذلك: النعمان بن حيون: كتاب تربية المؤمنين أو تأويل دعائم الإسلام، ج 1، ضمن منتخبات إسماعيلية، ص 9-11 و 75-76 وأساس التأويل، تحقيق وتقديم عارف

تامر، دار الثقافة، بيروت، ص44-45 أما ما يخص مشاكلات العدد (12) فلاحظ: مقدمة أربع رسائل إسماعيلية، ص12-14 وأساس التأويل، ص45-46 ورسالة جلاء العقول وزبدة المحصول، ص110-111

[19] سورة المدثر. 30 /

[20] أساس التأويل، ص.47